مـــجـــلـــة دراســـات بيت الـــمـــقـــدس، 2020، 20(3): 473–486
DOI: 10.31456/beytulmakdis.809664

أهمية بيت المقدس في ميزان الصراع بين التوازنات في منطقة "الشرق الأوسط" خلال عهد الأراتقة

متين شريف أوغلو*

ملخص: تتميز مدينة القدس من حيث أهميتها الدينية والسياسية والاستراتيجية في منطقة الشرق الأوسط بجملة من الخصائص التي لا يمكن أن تجدها مجتمعة في أي مدينة أخرى من مدن العالم . فهي من ناحية مدينة مقدسة في نظر كل الديانات السماوية اليهودية والمسيحية والإسلامية، وهي من ناحية أخرى مدينة تغري كل القوى الإقليمية والدولية لأهميتها الاستراتيجية في طبيعة التوازنات في منطقة الشرق الأوسط والعالم، وكذلك لعمقها الديني والتاريخي والحضاري. لذلك ظلت هذه المدينة فضاء لتنوع الأديان وتعايشها مع بعضها البعض عبر العصور، وفي نفس الوقت كانت محورا لصراع طويل بين قوى إقليمية ودولية مختلفة، تحاول كل واحدة منها الهيمنة عليها حتى تتحكم في العمق الاستراتيجي والحضاري لمنطقة الشرق الأوسط. فمنذ أن تم فتحها من قبل المسلمين في عهد الخليفة عمر بن الخطاب دخلت القدس في منعطف تاريخي جديد، جعلها من ناحية مسرحا لصراع طويل بين المسلمين والمسيحيين خلال الحروب الصليبية المختلفة، ومن ناحية ثانية كانت محلا لصراع بين القوى الإسلامية الموجودة في المنطقة مثلما هو الحال في الصراع بين السلاجقة والفاطميين. وقد ازدادت حدة الصراع على بيت المقدس بشكل خاص في عهد السلاجقة والأراتقة ، حيث مثلت هذه الحقبة منعطفا جديدا في تاريخ المنطقة وبيت المقدس على حد سواء، وظهرت توازنات جديدة، سيكون لها الأثر الأكبر في المرحلة اللاحقة على داخل القدس وخارجها. لذلك سنحاول في هذا البحث تقديم قراءة تحليلية لأهمية القدس في عهد الأراتقة الذين لعبوا دورا بارزا في تاريخ القدس، لاسيما في عهد القائد أرتق الذي كان واليا على القدس في عهد السلاجقة ، وكان له الدور البارز في حماية هذه المدينة من كل القوى المتربصة بها، كما كان له دور مهم في طبيعة الصراع في منطقة الشرق الأوسط. وسنتناول هذه الموضوع في ثلاثة محاور رئيسية: 1) ظهور الأراتقة وتأثيرهم على خريطة التوازنات بمنطقة الشرق الأوسط. 2) علاقة الأراتقة ببيت المقدس وتطوراتها. 3) القدس ودور الأراتقة في الحروب الصليبية.

الكلمات المفتاحية: القدس، الأراتقة، التوازنات، الصليبيون، الشرق الأوسط.

The importance of Bayt al-Maqdis in the balance of Powers in Conflicts during the Artuqid period in the "Middle East"

ABSTRACT: *he city of Jerusalem is distinguished in terms of its religious, political and strategic importance in the "Middle East" region by a number of characteristics that are unable to be found in any other city. On the one hand, it is a sacred city in the eyes of all monotheistic religions. On the other hand, it is a city*

* قسم التاريخ، جامعة ماردين أرتقلو، ماردين/ تركيا، metinzo1968@gmail.com

that tempts all regional and international powers due to its strategic importance in the balance of powers in the Middle East and the world, as well as for its religious, historical and cultural depth. Therefore, this city has remained a space known for its diversity of religions and their coexistence with each other over the ages, yet at the same time it is the focus of a long struggle between different regional and international powers, each attempting to dominate it to control the strategic and cultural depth of the Middle East region. The intensity of the conflict over Jerusalem increased in particular during the Seljuk and Artuqid era, as this era represented a new turning point in the history of the region and Jerusalem alike. New balances emerged, which had a great impact on the next phase of the development of Jerusalem both internally and in its relationships with outside powers. Therefore, we will try in this paper to provide an analytical reading of the importance of Bayt al-Maqdis during the era of the Artuqids as they played a prominent role in the history of the Holy City. There will be a special focus on the reign of Commander Artuq Bey, the governor of Jerusalem during the Seljuk era that had a prominent role in protecting this city and the wider region from forces that posed a risk to it. This paper will address this topic on three main axes: 1- The emergence of Artuqids and their influence on the map of equilibria in the "Middle East" region. 2- The relationship of the Artuqids with the Holy City and its developments. 3- Jerusalem and the role of the Artuqids in the Crusades.

KEYWORDS: *Jerusalem, Artuqids, Balances, Crusaders, Middle East.*

مقدمة

تمثل علاقة الأراتقة ببيت المقدس علاقة جوهرية في مسار التاريخ السياسي الإسلامي، فقد لعبوا دورا بارزا في الدفاع عن المدينة المقدسة منذ أن كان المؤسس الأول لإمارة الأراتقة أرتق بن أكسيك جنديا في جيش القائد السلجوقي ألب أرسلان، ثم انتقل ليكون واليا على القدس في عهد تتش الذي عينه واليا على القدس جزاء الخدمات التي قدمها إلى دولته. لقد كان تتش بن ألب أرسلان يدرك تماما نوايا الفاطميين وسعيهم إلى الاستيلاء على القدس، لذلك اختار أرتق القائد الشجاع، لأنه يعلم أنه الشخصية الأقدر والأكثر حزما وشجاعة في حماية القدس من أطماع الفاطميين الذين كانوا يمثلون مشروعا مضادا لدولة السلاجقة السنة، ويسعون إلى الاستيلاء على القدس وعلى أجزاء كبيرة من الشام.

لقد كان الأراتقة إحدى القوى التي لعبت دورا فاعلا في خريطة التوازنات في المنطقة، وساهموا مساهمة فعالة في الدفاع عن المدينة المقدسة، خصوصا ضد الصليبيين وفي فترة االحروب الصليبية التي كانت تمثل إحدى حلقات الصراع الإسلامي–المسيحي على القدس بداية من القرن 11م، واستمر على مدار قرون ولازال صداه يتردد إلى يومنا هذا. وتخبرنا المصادر التاريخية في تلك الفترة عن الدور الكبير الذي لعبه الأراتقة في الحروب الصليبية والتضحيات الكبرى التي قدموها من أجل تحرير مدينة القدس من أيدي الصليبيين، لاسيما في العهد الأيوبي.

مثلت بيت المقدس في فترات القلق السياسي والحضاري جوهر الصراع في خريطة التوازنات التي ظهرت في منطقة الشرق الأوسط . ولا شك أن الأراتقة تأثروا في عقلهم السياسي بتلك الأحداث، وحاولوا الانخراط فيها، نحو امتلاك مواطن النفوذ والسيطرة، والتمدد في مناطق واسعة من المنطقة، وكانت القدس أحد الأهداف الرئيسية التي تشغل بال الأراتقة، وذلك لما تمثله من قداسة، وكذلك لأهميتها الاستراتيجية على سواحل البحر الأبيض المتوسط. فلم تكن علاقة الأراتقة فقط ذات بعد ديني، بل كانت أيضا تمثل جوهر صراع سياسي واستراتيجي وحضاري. لذلك فإن دراسة تاريخ إمارات الأراتقة مهمة جدا لمعرفة حقبة تاريخية مهمة للقدس، مثل فيها الأراتقة دورا بارزا في الدفاع عن المدينة، لا سيما في مرحلة الحروب الصليبية، حيث تشكل علاقة الأراتقة بالصليبيين أخطر حلقة في تاريخهم السياسي والعسكري، بما تيمزت به من مراحل مختلفة، فقد كان الأراتقة ينخرطون في جبهة التحالف الإسلامية ضد الصليبيين.

إذاً فالعلاقة بين الأراتقة وبيت المقدس علاقة وثيقة، وقد ساهمت التهديدات التي تعرضت لها منطقة "الشرق الأوسط" بشكل عام وبيت المقدس بشكل خاص عوامل مهمة في تقوية هذه العلاقة بين بني أرتق والمدينة الإسلامية المقدسة. حيث تولى الأراتقة في هذه الفترة موقع القيادة الإسلامية الموحدة ضد الصليبيين، رغم ذلك فقد كانت هناك أخطاء كبيرة قام بها الأراتقة، وكان لها تأثير سلبي جدا على مسرح الصراع الإسلامي الصليبي، وذلك عندما تحالف إيلغازي بن أرتق مع صليبيي أنطاكيا، ومانتج عن هذا التحالف من تأثير كبير على سير الصراع بين المسلمين والصليبيين.

يحاول هذا البحث تحقيق جملة الأهداف التالية: فهم أهمية بيت المقدس في ميزان خريطة التوازنات في منطقة الشرق الأوسط. ومعرفة أهم القوى والتوازنات المتصارعة في منطقة الشرق خلال العصر الوسيط. بالإضافة إلى معرفة أهمية بيت المقدس في المشروع السياسي الأرتقي والجهود الكبيرة التي بذله الأراتقة لتحرير بيت المقدس من الصليبيين. وفهم الخلفيات السياسية والدينية والحضارية من طبيعة الصراع في منطقة الشرق بشكل عام، وفي بيت المقدس بشكل خاص.

أولًا: ظهور الأراتقة وتأثيرهم على خريطة التوازنات بمنطقة الشرق الأوسط

الأراتقة هم إحدى فروع قبائل الغز التركمانية التي هاجرت من آسيا الوسطى إلى منطقة الأناضول، ويعود اسمهم نسبة إلى جدهم الأول القائد أرتق بن أكسيك الذي كان أحد القادة المتميزين، والقائد الأهم الذي طور هذه القبيلة وغير من طريقة تفكيرها، وساهم مساهمة فعالة في الجيش السلجوقي بقيادة السلطان ألب أرسلان.[1] كما كان لأرتق دور بارز أن جعل لقبيلته أهمية كبيرة في الساحة السياسية، بعد أن كانت إحدى القبائل المجهولة، وجعلها تنخرط ضمن المشروع السياسي التركي الإسلامي في

منطقة الأناضول وفي الشرق الأوسط، وذلك من خلال المهمات التي كلفه بها ملكشاه في فتح منطقة الشام وفلسطين بقيادة أخيه تتش، وكان لأرتق دور مهم في حملة الشام وإخضاعها، والاستيلاء عليها من قبل السلاجقة.[2]

لقد ساهمت هذه الجهود والنجاحات التي قدمها أرتق للسلاجقة في تحويله إلى أهم الشخصيات المقربة من السلطان ملكشاه، فعينه هذا الأخير عاملا على حلوان والمناطق المجاورة لها في العراق.[3] وكانت هذه فرصة مهمة لولوج أرتق عالم السياسة وإدارة الدولة، وتنضيج الوعي السياسي لديه ولدى أفراد قبيلته التي يتزعمها، حيث بدأت هذه القبيلة تطمح أن يكون لها نصيب في تشكيل كيان سياسي في إحدى المناطق الموجودة في الأناضول أو في منطقة الشام أو العراق. كما ساعد أرتق ملكشاه في حربه ضد أخيه تتش والقضاء على تمرده، مما جعله ينال حضوة خاصة لدى السلطان السلجوقي ملكشاه.[4] غير أن هذه الثقة التي وصل إليها لدى السلطان ملكشاه ستهتز بسبب خلاف وقع في معركة دياربكر مع ابن جهير، مما اضطر أرتق إلى الانسحاب، والتوجه نحو حلب، ومراسلة الفاطميين للإنتماء إليهم، ومحاولة إقناع تاج الدولة تتش السلجوقي سلطان في الشام بالانضمام إلى حركتهم. ورغم محاولة ملكشاه استرضاءه للعودة إلى جيشه إلا أن أرتق رفض خوفا من انتقام ملكشاه منه، و لم يبق له سوى التوجه إلى الشام، حيث ساعد تتش السلجوقي في القيام بعدة عمليات عسكرية ضد عدة قوى معادية له.[5]

لقي أرتق الحضوة والترحيب من تتش، حيث سيتمكن أرتق من ترسيخ نفسه ومكانته في منطقة الشام، ويلعب دورا مهما فيها ويفتح الطريق إلى قبيلته إلى الاستفادة من هذه المكانة والحضوة التي لقيها من تتش السلجوقي الذي عينه واليا على بيت المقدس، حيث كانت تتعرض هذه الأخيرة إلى تهديدات متواصلة من قبل الفاطميين في مصر. لذلك كان اختيار تتش لأرتق على ولاية القدس اختيارا يجمع بين كسب هذا الرجل من ناحية، وكذلك التصدي إلى أطماع الفاطميين من ناحية أخرى. ومن تلك الفترة تبدأ العلاقة الفعلية بين الأراتقة وبيت المقدس.

ثانيا: علاقة الأراتقة ببيت المقدس وتطوراتها

دخول القدس تحت حكم الأراتقة

ذكرنا سابقا أن علاقة الأراتقة بالقدس تبدأ من خلال علاقة أرتق بك بتتش الذي عينه واليا على بيت المقدس جزاء خدماته ووقوفه معه في حروبه ضد خصومه، وكذلك لما تَميز به أرتق من شجاعة كبيرة وأداء ناجح في إدارة المعارك والسيطرة على جملة من المواقع الاستراتيجية. لقد كان تتش يفهم جيدا مثل هذه الخصائص المتميزة التي يتمتع بها أرتق، وكذلك مايتمتع به من شخصية قيادية وتأثير على مختلف القبائل التركمانية ومنها الأراتقة.[6] لقد أراد تتش بإقطاع القدس إلى قائدهم أرتق أن يستخدمهم

في جبهة مهمة ضد الفاطميين الذين يبحثون عن الفرص السانحة للسيطرة على مدينة بيت المقدس. وعلى عكس ماتذكره بعض الروايات من أن إقطاع تتش القدس إلى أرتق فقط جزاء مناصرته في الحرب ضد خصومه، إلا أن الهدف الأساسي مثلما يذكر الدكتور عماد الدين خليل أن تتش أراد من أرتق والأراتقة في القدس أن يشكلوا حاجزا ضد التوسع الفاطمي الشيعي الذي يريد الهيمنة على بيت المقدس، وجعلها قاعدة انطلاق للسيطرة على كافة مناطق الشام.[7]

كانت بيت المقدس في تلك الحقبة الزمنية جوهر الصراع بين السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة، ورغم هذه الخلفية المذهبية للصراع بينهما فقد كانت القدس تمثل موقع استراتيجيا متاخما على البحر المتوسط، ولها تأثير كبير جدا على باقي مناطق الشام. لذلك اكتسبت هذه المدينة أولوية كبرى سواء في السياسة التوسعية السلجوقية، أو في استراتيجية التوسع الفاطمي من مصر نحو الشام. وفي ظل هذه العلاقات التنافسية بين السجلاقة والفاطميين يظهر الأراتقة كعنصر وظيفي، يتم استخدامه من قبل السلاجقة بقيادة تتش لمواجهة الخطر الفاطمي في مصر. وقد كان تولي أرتق واليا على القدس قرارا صائبا في استراتيجية تتش، وضربة كبيرة ضد النفوذ الفاطمي، حيث لعب أرتق دورا مهما منذ توليه ولاية القدس في إيقاف أي محاولة للاستيلاء عليها من قبل الفاطميين الذين فشلوا في السيطرة على المدينة على مدار الفترة التي حكم فيها أرتق المدينة، أي منذ سنة 1086 إلى سنة 1091. ورغم عدم ورود أي أخبار عن الفترة التي تولى فيها أرتق ولاية القدس، و لم يرد ذكر أهم إنجازاته داخل المدينة، إلا أنه يفهم من خلال سياق الأحداث التي حدثت في منطقة الشام أن هذه المدينة ظلت تابعة للسلاجقة، و لم يتمكن الفاطميون من السيطرة عليها، وهذا حتما يعود إلى الدور الكبير لأرتق وللأراتقة في الدفاع عن المدينة.[8]

القدس وحلم المشروع السياسي الأرتقي

ويمكن القول إن العلاقة بين الأراتقة ومدينة بيت المقدس لا يمكن اختزالها في فترة وجود أرتق واليا عليها، وإنما هي علاقة تتسع أبعادها وخلفياتها لكون الأراتقة هم إحدى القبائل التركمانية التي اعتنقت الإسلام على المذهب السني، وقد كانت تعتقد بقدسية هذه المدينة، وواجب الدفاع عنها ضد أي تدخل خارجي أو داخلي. من هنا تشكل الإحساس بالانتماء إلى هذه المدينة من قبل الأراتقة، حيث استمر حتى بعد وفاة أرتق سنة 1091، ليتواصل مع ابنيه سقمان وإيلغازي اللذين ظلا يتحكمان في مدينة القدس، ويحميانها من محاولات توسع الفاطميين وسعيهم للسيطرة على المدينة.[9] من جهة أخرى يمكن اعتبار أرتق هو من وضع اللبنة الأساسية لتكوين كيان سياسي للأراتقة من خلال تجربته في القدس وتوليه عليها، حيث أدرك الأراتقة خلال هذه الفترة بضرورة تأسيس كيان سياسي يتمثل في إمارة أو

دولة تحميهم، وتمنحهم الديناميكية والقوة للاستمرارية، بدلا من أن يلعبوا دورا هامشيا أو وظيفيا عند السلاجقة، دون أن يكتسبوا أي مكاسب حقيقية سوى تقوية غيرهم.

لقد كانت التجربة السياسية للأراتقة في القدس فرصة مهمة لتطوير العقل السياسي الأرتقي، وتفعيله نحو فعل سياسي أوسع وأكثر نضجا في ظل التغيرات الكبرى التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط، وفي ظل ظهور عدة توازنات جديدة، تحاول كل واحدة منها السيطرة على المنطقة. فكان لزاما على العقل السياسي الأرتقي أن ينخرط في خارطة التوازنات هذه، وأن يلعب دورا فاعلا فيها. وفعلا كانت تجربة القدس هي النواة الأولى للتجربة السياسية للأراتقة، وتشكيل إمارة ستتعرض خلال مرحلة تأسيسها إلى تحديات كبرى،[10] وربما ستساهم في تنضجيها، وتطوير وعيها السياسي، خصوصا في ظل مناخ الصراع القائم بين السلاجقة والفاطميين من ناحية، بين السلاجقة والصليبيين من ناحية أخرى. و لم تكن القدس في الوعي السياسي الأرتقي الجديد مدينة هامشية، بل كانت تشكل مركز تجمع الأراتقة ومجال نشاطهم السياسي الوليد، حيث مثلت هذه المدينة الحاضنة الأولى لولادة فكرة الوعي السياسي، وكانت مهد تشكل حلم المستقبل السياسي الأرتقي الذي بدأ تحقيقه فعليا على أرض الواقع من خلال التجربة المقدسية. وهي في الحقيقة مرحلة أساسية لمعرفة إدارة الحكم، وممارسة الفعل السياسي، والتعاطي مع مجمل التحولات السياسية والاستراتيجية في منطقة الشام وفي منطقة الشرق الأوسط عموما.

غير أنه يمكن القول إن هذا الحلم الجديد الذي بدأ ينشأ، ويشتد، ويتطور خلال وجود أرتق بك واليا على بيت المقدس سيشهد اختلالا، وتحديا كبيرا بعد وفاته، ودخول الإمارة الوليدة في مرحلة ضبابية، وعدم وضوح للرؤية، خصوصا بعد التهديدات المتلاحقة التي شكلها الفاطميون الذين نجحوا بعد ذلك في السيطرة على القدس، وأخذوها من أيدي الأراتقة الذين كانوا يعتقدون أن القدس ستكون عاصمة كيانهم السياسي الذين حلموا به. ورغم أن الأراتقة بعد وفاة زعيمهم الأكبر أرتق قد لعبوا بقيادة ابنيه دورا سياسيا مهما في القدس على مدار سبع سنوات، وانخرطوا في أحداث الصراع السياسي الذي شهدته بلاد الشام ومنطقة الشرق الأوسط ، واستفادوا من تجربة الصراع، وفهم كيفية إدارة الصراع بين مختلف التوازنات في المنطقة، إلا أن الأراتقة أدركوا أن مستقبلهم السياسي داخل القدس غير مضمون، خصوصا مع زيادة محاولات الفاطميين للسيطرة على مدينة القدس، وكذلك بسبب حجم التهديدات التي تتعرض لها منطقة الشام.[11]

لم يكن أمام ابني أرتق بعد وفاة والدهما سنة 1091، سوى الاستمرارية في دعم تتش شقيق ملكشاه، ومساندته في كل حروبه، حتى يضمنوا بقاءهم في القدس، ويحصلوا على مكاسب لتحقيق حلمهم السياسي. لذلك عندما توفي السلطان السلجوقي ملكشاه، ودخل ابنه بركياروق في صراع مع عمه

تتش، انحاز ابنا أرتق سقمان وإيلغازي إلى صف تتش، ووقفا معه في هذه الحرب التي انتصر فيها تتش على ابن اخيه، لذلك كافأ تتش الأراتقة بأن منح منطقة سروج إلى سقمان بن أرتق الذي اتبع مع أخيه نفس السياسة التي كان يتبعها والدهما في تأييد تتش، والوقوف معه في كل حروبه سنة 1093م.[12]

لم يكن وقوف الأراتقة إلى جانب تتش فقط رغبة في مواصلة سياسة أرتق بك، بل كان وقوفهم إلى جانبه لأنه يمثل الشخصية الوحيدة التي ستساعدهم في تأسيس حلمهم السياسي في القدس التي أقطعها للقائد أرتق، واستمرت عندهم بعد وفاته. وعلى هذا الأساس كان وقوف سقمان وإيلغازي في الحرب التي دارت بين تتش وابن أخيه بركياروق سواء على مستوى جبهة الشام، أو على مستوى جبهة الصراع في العراق وإيران. غير أن هذا الحلم السياسي للأراتقة سيتعرض إلى ضربة قوية بمقتل تتش، خلال صراعه مع ابن اخيه سنة 1095 ميلادي.[13]

وخلال هذه المرحلة وجد الأراتقة أنفسهم وجها لوجه في صراع مع من وقفوا ضدهم، كما أضحى وجودهم في القدس مهددا، فقد أصبحوا يواجهون جبهة سلجوقية في الشام ، وفي نفس الوقت يواجهون جبهة فاطمية تطمع في السيطرة على بيت المقدس مهد الحلم السياسي الأرتقي. وفي ظل هذه التغيرات الكبيرة، وتطور الصراع في منطقة الشام بعد وفاة تتش، ونشوب الصراع بين ابني تتش رضوان وأخيه دقاق، وجد الأراتقة في القدس أنفسهم مجبرين على الدخول في هذا الصراع بين ابني تتش دقاق ورضوان، حيث حاول هذا الأخير الاستيلاء على دمشق ذات الموقع الاستراتيجي المهم، وقد عرض على سقمان بن أرتق مساعدته مقابل أن يقطعه معرة النعمان وأعمالها، غير أن هذا الحلف لم يستمر نتيجة فشل رضوان في السيطرة على دمشق، مما جعل سقمان يعود إلى القدس والمكوث بها.[14]

لم يكن دعم سقمان لرضوان بلا مقابل، بل كان يرى في رضوان إمكانية أن يكون شخصية مساعدة له وللأراتقة على تحقيق حلمهم السياسي، وحمايتهم من تهديدات الفاطميين لمدينة القدس التي تأثرت فيها الأوضاع الداخلية بسبب التطورات الحاصلة في منطقة الشام، خصوصا دمشق وحلب. وفعلا نتج الصراع بين رضوان وأخيه دقاق عن صلح واتفاقية بينهما، حيث أصبحت دمشق لرضوان والرها صارت لدقاق، مما سمح لسقمان الذي لعب دورا مهما في مساندة رضوان أن يجد حضوة من قبل هذا الأخير، وبقي سقمان أكبر حليف لرضوان، مستفيدا أيضا من الخلاف بين الفاطميين ورضوان الذي ألغى الخطبة لهم في دمشق بعد أن أقنعه سقمان بذلك، وأصبحت الخطبة تقرأ باسم الخليفة العباسي في بغداد،[15] وهو الأمر الذي سيجعل الفاطميين يفكرون في الاستيلاء على القدس، والانطلاق للسيطرة على منطقة الشام. غير أن العلاقة بين سقمان ورضوان ستشهد تغيرا عندما وقع الخلاف بينهما في محاربة الخصوم في ديار بكر أو الصليبيين، وقد تطور الخلاف في وجهات النظر إلى خلاف سياسي بين الرجلين،

مما نتج عنه انشقاق سقمان عن رضوان والتحاقه إلى صفوف دقاق.[16] أمام هذه التغيرات والتحولات وجد سقمان والأراتقة أنفسهم في وضعية غير مريحة بمدينة القدس، وبات التفكير في حلول جديدة تعطي ديناميكية أقوى، وفاعلية أكبر في تحقيق الحلم السياسي الأرتقي، وتكوين إمارة سياسية، تجمع شتات الأراتقة الذين سئموا حالة التبعية، وعدم الاستقلالية في تقرير مصيرهم السياسي، خصوصا وأن القدس لم تعد المكان الآمن الذي يسمح للأراتقة بتكوين مشروعهم السياسي المأمول، نظرا لوقوعها قريبا من أطماع الفاطميين، وكذلك بسبب تهديدات رضوان بن تتش بعد انشقاق سقمان عنه.

انسحاب الأراتقة من القدس بعد سقوطها في يد الفاطميين

كان بحث الأراتقة عن مكان بديل للقدس لتحقيق مشروعهم نابعا من رؤية سياسية واستراتيجية تضع المشروع السياسي الأرتقي كأولوية نحو تحقيقه في مكان بعيد عن الصراعات الإقليمية والدولية، وهو ما لم يجدوه في القدس التي أصبحت في نهاية القرن الحادي عشر ميلادي محل استهداف من الفاطميين، وفي نفس الوقت من قبل الصليبيين الذين استطاعوا أن يسيطروا على أنطاكية بعد هزيمة الأمراء المسلمين سنة 1097م، وفتح الطريق أمامهم نحو السيطرة على مدينة بيت المقدس. كان تخوف الأراتقة على مستقبل مشروعهم السياسي ناجما عن جملة التهديدات المستمرة التي تتشكل بسرعة في منطقة الشام والشرق الأوسط، وكذلك من تغير طبيعة التوزانات والقوى المتصارعة في منطقة الشام ومنطقة الشرق الأوسط، حيث أخذ الصراع ثلاثة أبعاد أساسية: أولها صراع داخلي بين القبائل التركمانية، وصراع مذهبي بين السلاجقة السنة والفاطميين الشيعة، وصراع ديني بين المسلمين والصليبيين.

كانت القدس تمثل أحد أهم محاور هذا الصراع خصوصا الإقليمي منها والدولي. لذلك وفي ظل ضعف السلاجقة والخلافات بين الأمراء الأتراك، وهزيمتهم أمام الصليبيين، وجد الفاطميون الفرصة سانحة للاستيلاء على القدس، حيث تقدمت القوات الفاطمية إلى المدينة سنة 1098 بقيادة الأفضل بن بدر الجمالي. وقد أدرك الأراتقة أنه ليس بإمكان حليفهم دقاق تقديم أي مساعدات فورية لهم ضد الفاطميين، لكنهم اعتقدوا أن تحصينات القدس عظيمة، وستحميهم من الجيش الفاطمي، وأن مقدرتهم العسكرية ستجعلهم قادرين على الصمود حتى يأتي المدد من دقاق أو من أي أمراء الشام السلاجقة.[17]

حاول الفاطميون الدخول مع سقمان وإيلغازي الدخول في مفاوضات لتسليم المدينة دون حرب، إلا أن الأراتقة رفضوا تسليم المدينة، وباءت كل المحاولات بالفشل، فضربت القوات الفاطمية حصارا أكثر من أربعين يوما على القدس، إلا أن الأراتقة أصروا على المواجهة والمقاومة لحماية هذه المدينة التي تمثل نواة مشروعهم السياسي الذي حلموا به، وبذلوا جهودا كبيرة لتنضجيه في بيت المقدس. غير أن أهل القدس خشوا أن تتعرض مدينتهم إلى الدمار والخراب من قبل الفاطميين، فقد وقعت اتصالات بين

بعض الأهالي والجيش الفاطمي لفتح أبواب المدينة بعد أن منحوهم الأمان. وبذلك وجد الأراتقة أنفسهم في وضعية صعبة أمام خوف الأهالي من خرابها وبين انتهاء مشروعهم السياسي. وقد نتج عن هذا دخول الفاطميين إلى مدينة القدس والسيطرة عليها، وانهزم الأراتقة وانسحبوا من المدينة في اتجاه دمشق.[18]

وبذلك تنتهي المرحلة الأولى من علاقة الأراتقة بمدينة القدس التي مثلت مهد ولادة مشروعهم السياسي الذي حلموا بتأسيسه. غير أن هذه العلاقة ستظل موجودة في عمق الوعي الجمعي الأرتقي، وستبقى أفئدتهم تحن إلى المهد الأول، وتسعى للدفاع عنه، خصوصا بعد سقوط القدس سنة 1099 في يد الصليبيين، لتبدأ علاقة جديدة بين الأراتقة والقدس، وهي علاقة السعي نحو تحريرها من أيدي الصليبيين.

الأراتقة ورحلة البحث عن وطن بديل للقدس

أمام سلسلة التهديدات التي تتعرض لها مدينة القدس، أدرك الأراتقة أنها لم تعد المكان المناسب لبناء مشروعهم السياسي الذي حلموا به، وقد ازداد هذا القلق بعد أن تمكن الفاطميون من السيطرة على المدينة، وانسحاب بني أرتق منها بحثا عن وطن جديد، يكون آمنا وبعيدا عن أي تهديد يشكل خطرا على مستقبلهم السياسي. وكان انسحابهم من القدس بمثابة ضربة قوية لهم ولمشروعهم السياسي، غير أنهم كانوا متسلحين بتجربتهم السياسية التي عاشوها في القدس وفي منطقة الشام، كما كانوا متسلحين بضرورة بناء مشروع سياسي للدفاع عن الأمة وعن القدس، خصوصا بعد سقوطها في يد الصليبيين سنة 1099م، حيث مثل هذا الحدث صدمة كبرى لكل العالم الإسلامي وللأراتقة الذين أحبوا القدس، ودافعوا عنها لمدة طويلة.

كان سقمان يرغب في الاستيلاء على دياربكر وجعلها مركزا له في حروبه ضد أعدائه، ووطنا جديدا يجمع شمل الأراتقة الذين تشردوا بعد انسحابهم من مدينة القدس التي سقطت في يد الفاطميين، ثم في يد الصليبيين بعد عام من ذلك. كانت ديابكر هي المكان المناسب لبناء المشروع السياسي الأرتقي. وفعلا بدأ سقمان نشاطا عسكريا وسياسيا موسعا في المناطق الرئيسية لدياربكر، تمهيدا للسيطرة عليها، وقد استطاع في فترة وجيزة من تشكيل تحالفات إسلامية قصد مواجهة الصليبيين الذين سيطروا على القدس، وقتلوا أهلها، ودنسوا المدينة التي ألفها سقمان وكانت مهد حلم مشروعه السياسي. وتمكن سقمان خلال مدة قصيرة، وبفضل سياسته واستراتيجيته ونشاطاته العسكرية المتواصلة أن يهيمن على عدة مناطق في دياربكر، والفرات وشمالي الشام، وجنوب الأناضول التي تتواجد فيها عدة قبائل تركمانية، حيث سيحاول سقمان إخضاعها إليه، والاستفادة منها في سياق مشروعه السياسي الذي آمن به.[19]

استفاد سقمان من النزاع الذي حصل بين شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة بن عمر وبين موسى التركماني، وكان نائبا على حصن كيفا. فقد استنجد جكرمش بسقمان في حربه ضد موسى

التركماني، ووعده بإعطائه حصن كيفا ومبلغا كبيرا من المال، فانتهز سقمان هذه الفرصة، وخرج لمواجهة موسى التركماني الذي اغتيل خلال استعداده للمواجهة، فأسرع سقمان للاستيلاء على حصن كيفا. وبذلك يكون سقمان قد تمكن من السيطرة على أحد أهم المراكز الحصينة في ديابكر، واتخذها قاعدة لنشاطاته التوسعية، وبناء مشروعه السياسي، وتوسيع ممتلكاته التي توسعت فيما بعد، لتشمل مدينة ماردين سنة 1102م، وهي أهم إحدى المدن التابعة لدياربكر. وبذلك أصبحت هذه المنطقة هي الوطن الجديد لبناء المشروع السياسي الأرتقي، حيث استطاع سقمان خلال سنتين من الاستيلاء على أهم المراكز العسكرية والاقتصادية في دياربكر، وبذلك يمكن اعتبار سقمان هو المؤسس الثاني للمشروع السياسي الأرتقي بعد والده أرتق بن أكسيك.[20]

انتهج سقمان خلال هذه المرحلة سياسة التحالف مع عدة إمارات لتقوية نفوذه، خصوصا وأن هناك تهديدا مشتركا خطيرا يتمثل في الصليبيين الذين سيطروا على عدة مناطق في الشام ومنها مدينة بيت المقدس، حيث شكلوا فيها دويلة صليبية صغيرة، كانت بمثابة قاعدة تهدد كل المنطقة الإسلامية. وفعلا استثمر سقمان تحالفاته مع بقية الإمارات التركمانية الإسلامية لتوجيهها نحو محاربة الصليبيين، وقد توفي سنة 1104 وهو في طريقه إلى دمشق، يقود حملة ضد الصليبيين الذين سيطروا على طرابلس.[21] وقد كانت هذه الحملة ضد الصليبيين هي الانطلاقة الأولى للأراتقة بعد مرحلة التأسيس الثانية في منطقة دياربكر، حيث سينخرط الأراتقة في حروب طويلة مع قوى محلية وصليبية. وسيواصل الأراتقة حروبهم نحو تحرير القدس من أيدي الصليبيين.

ثالثا: القدس ودور الأراتقة في الحروب الصليبية

ذكرنا آنفا أن مرحلة الصراع بين الأراتقة والصليبيين قد بدأت مع سقمان الذي توفي في طريقه على رأس حملة ضد الصليبيين في طرابلس، وقد كانت هذه الحملة مؤشرا على رغبة الأراتقة في مواجهة الخطر الصليبي الذي يهدد كل المنطقة الإسلامية. في هذه الأثناء خلف إيلغازي أخاه سقمان، وانتهج نفس سياسته القائمة على سياسة التحالفات، وتقوية الصف الأرتقي، وتوجيه هذه التحالفات ضد الخطر الصليبي الذي استحوذ على عدة مراكز أساسية في منطقة الشرق الأوسط وفي مقدمتها بيت المقدس.

انضم الأراتقة إلى التحالفات الإسلامية التي شكلها السلاجقة لمجابهة الخطر الصليبي، وقد كانت تحالفات تجمع عدة إمارات إسلامية متواجدة في الشام والعراق وإيران ومنطقة الجزيرة. غير أن هذه القوى الإسلامية المتحالفة لم تستطع أن تحقق في البداية انتصارات كبيرة على الصليبيين الذين سيطروا على الرها وأنطاكيا والقدس وطرابلس، وهي مراكز ذات أهمية استراتيجية كبرى. ويعود ضعف التحالفات الإسلامية إلى الصراعات الدائرة بين أبناء تتش دقاق ورضوان، وكذلك الصراع بين عدة

إمارات إسلامية فيما بينها.[22] كان الأراتقة من أهم القوى الإسلامية التركمانية التي واجهت الخطر الصليبي، حيث رأينا أن سقمان بن أرتق كان قد استجاب لياغي سيان صاحب أنطاكيا خلال حصارها من قبل الصليبيين الذين استطاعوا أن يهزموا القوى الإسلامية المتحالفة التي كان الأراتقة أحد القوى الرئيسة فيها. وقد مثلت هذه الهزيمة ناقوس خطر لكل القوى الإسلامية بضرورة التوحد ضد الخطر الصليبي القادم للاستيلاء على كل الشرق الإسلامي. كانت الخلافات بين القوى الإسلامية المتحالفة كبيرة، مما ساهم في انتصار الصليبيين عليهم، واستمروا في السيطرة على مناطق شاسعة في منطقة الشام التي كانت تمثل أحد أهم المناطق الرئيسية التي ينتشر فيها الأراتقة وبقية الإمارات التركمانية الأخرى.

خلال هذه المرحلة اتجهت الحملة الصليبية الرئيسية نحو القدس، وتمكنت من الاستيلاء عليها سنة 1099، وانسحب الفاطميون منها. وقد مارس الصليبيون جرائم ومجازر بشعة في حق المسلمين في القدس التي تمتعت في عهد الأراتقة بحالة من الاستقرار والتعايش بين المسلمين والمسيحيين، حيث لم يتعرض هؤلاء في عهد الأراتقة والسلاجقة إلى أي اضطهاد ديني، فعلى مدار 12 سنة من حكم الأراتقة للقدس، فقد كان أهل المدينة ينعمون بالحرية نتيجة سياسة التسامح التي مارسها الأراتقة معهم.[23]

كان الأراتقة خلال فترة حكمهم للقدس يدركون حجم المؤامرات التي كان يحيكها بعض المسيحيين المتحالفين مع الفاطميين، لذلك قاموا بنفي عدد كبير من القساوسة خارج مدينة القدس، وانسحب إلى قبرص عدد من البطارقة الذين كانوا يتعاملون مع الصليبيين المتربصين بالقدس للاستيلاء عليها. وتأتي هذه المؤامرات التي يقوم بها القساوسة في القدس في سياق صراع أوسع وهو الصراع الإسلامي-المسيحي المتمثل في الصراع بين السلاجقة المسلمين والبيزنطيين المسيحيين في الشرق عموما وفي القدس خصوصا.[24] مثل الأراتقة أهم القوى الإسلامية التي واجهت الصليبيين، وتكبدت خسارات فادحة معهم، ويعود ذلك إلى الدور السلبي الذي لعبه الفاطميون الذين استغلوا صراع الأراتقة مع الصليبيين للسيطرة على منطقة الشام، بل تذكر الروايات التاريخية أن الفاطميين عرضوا على الصليبيين خلال مواجهتهم للقوى الإسلامية التركية القيام بتحالف مشترك، وتقسيم ممتلكات السلاجقة في الشام، فتكون أنطاكيا للصليبيين، وتكون فلسطين والقدس للفاطميين الذين استغلوا فرصة الاضطراب الذي سببته الحروب الصليبية لافتكاك القدس من يد الأراتقة الذين انتظروا المدد من بقية القوى الإسلامية التركمانية في شمال بلاد الشام، غير أن هذه القوى لم تستطع نجدة القدس من قبضة الفاطميين بسبب انشغالهم بالحروب ضد الصليبيين الذين استغلوا هم بدورهم ضعف الفاطميين، واستولوا بعد عام على القدس. لقد عرفت مواجهة الأراتقة للصليبيين ذروتها في عهد سقمان الذي توفي وهو في طريقه لنجدة مدينة دمشق.[25]

خلف سقمان أخوه إيلغازي الذي تابع نفس سياسة أخيه من تحالفات مع القوى الإسلامية التركية، غير أن إيلغازي في علاقته بالصليبيين كان يتسم بالتناقض، فمرة كان يشترك ضمن القوى الإسلامية ضد الصليبيين، ومرة أخرى يدخل في تحالفات مع الصليبيين ضمن صراعه مع بعض القوى الإسلامية التركمانية الأخرى. حالة التناقض هذه لدى إيلغازي أثرت بشكل سلبي على التحالف الإسلامي، وساعد على إعطاء الفرصة للتوسع الصليبي في المنطقة. غير أنه رغم هذه التناقضات التي يتسم بها إيلغازي إلا أن الدور الأرتقي بشكل عام كان كبيرا في مواجهة الصليبيين. ففي 1109 تشكل حلف إسلامي بأمر من محمد بن ملكشاه، وقد لعب فيه الأراتقة بقيادة إيلغازي دورا مهما لمواجهة الصليبيين الذين استنجدوا بملك بيت المقدس لنجدتهم بالدعم العسكري ضد المسلمين.[26] لكن هذا الحلف الإسلامي لم يأت بنتيجة بسبب الاختلافات القائمة بين الأمراء المسلمين على نقاط لا تمثل أولوية في مرحلة الصراع مع الصليبيين. من جهة أخرى لعب الأراتقة في مرحلة معينة دورا سلبيا بقيادة إيلغازي الذي اشتدت خلافاته مع بعض القوى الإسلامية الأخرى، فاتجه لعقد اتفاقيات مع الصليبيين، وكان لهذه الاتفاقيات آثار سلبية، سواء على المنطقة بأكملها أو على بيت المقدس التي يسيطر عليها الصليبيون، وحولوها إلى قاعدة لهم في الشرق. بل وصل بهم الأمر إلى الدخول في مساعدة الصليبيين في محاربتهم للمسلمين.[27] ورغم بعض السلوكيات السياسية السلبية والأخطاء الفادحة لإيلغازي، إلا أنه كان في أغلب الأحيان مشاركا في التحالفات الإسلامية ضد الصليبيين الذين استغلوا فرصة الخلافات بين القوى الإسلامية المفككة في التمدد والنفوذ على عدة مناطق رئيسية في منطقة الشام وفي مقدمتها بيت المقدس. أدرك إيلغازي فيما بعد خطورة الزحف الصليبي، فبذل جهده طيلة السنوات التالية في توجيه ضربات قاسية للصليبيين مع حليفه طغتكين، حيث أهلته هذه الضربات إلى أن يستلم مركز القيادة الإسلامية في حركة الجهاد ضد الصليبيين. كما أن توقف المحاولات السلجوقية لقتال الصليبيين في الشام أدى إلى أن غدا هؤلاء يجابهون أسرات محلية كالأراتقة والزنكيين والأيوبيين فيما بعد، ركزت جل اهتمامها على منطقة الشام، وفاقت في خطورتها وصلابتها سلاطين السلاجقة أنفسهم.[28]

لقد نال الأراتقة مركز القيادة والزعامة الإسلامية في قتالهم للصليبيين بمنطقة الشرق الأوسط، وقد نجحوا في استرداد عدة مناطق، ومن أهمها حلب التي كانت تمتلك عمق استراتيجيا مهما في صراع التوازنات في منطقة الشام. لذلك كان الاستيلاء عليها أهم نجاح حققه الأراتقة والقوى الإسلامية لمواجهة الصليبيين في القدس وفي عدة مناطق أخرى. ونجحت القوى الإسلامية في توجيه ضربات قوية للصليبيين، وقطع طرق الإمداد عليهم من أنطاكيا والرها، وهذا ما سيساعد على إضعاف تمددهم وتوسعهم. وكان إيلغازي يدرك أهمية حلب في ميزان الصراع في المنطقة، لذلك حرص على الاستيلاء

عليها لأنها هي الطريق نحو تحرير بيت المقدس. لقد مهد إيلغازي باستيلائه على حلب الطريق إلى بقية القيادات الإسلامية القادمة لمواجهة الصليبيين. فبعد أن مات خلفه ابن أخيه بلك بن بهرام الذي نجح في توجيه ضربات قوية للصليبيين. وبذلك يكون الأراتقة لقد لعبوا دورا مهما في الجهاد ضد الصليبيين، ومهدوا الطريق للقيادات القادمة للقضاء على الصليبيين، وتحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي الذي ساعده الأراتقة في حربه ضد الصليبيين، وكان لهم الفضل في الجهاد نحو تحريرها.[29]

أهم نتائج البحث

نتوصل من خلال بحثنا هذا إلى جملة من النتائج أهمها:

- مركزية بيت المقدس في ميزان صراع التوازنات في منطقة الشرق الأوسط خلال العصر الوسيط، حيث كانت كل واحدة من هذه القوى تسعى للسيطرة عليها لأهميتها الدينية والاستراتيجية في المنطقة.
- الدور الكبير الذي لعبه السلاجقة والإمارات الإسلامية التركية في مواجهة كل التهديدات المتربصة بمدينة القدس وبمنطقة "الشرق الأوسط".
- الدور البارز الذي لعبه الأراتقة في خريطة التوازنات في المنطقة، وأهمية الدور الذي لعبوه في الحفاظ على القدس وفي الدفاع عنها.
- كانت فترة ولاية أرتق على القدس النواة الأولى لبداية تشكل المشروع السياسي الأرتقي، حيث تحولت بيت المقدس فيما بعد إلى المكان الذي سينضج فيه العقل السياسي الأرتقي، ويبدأ في تكوين مشروع سياسي قادر على لَمِّ شتات الأراتقة، ويمنحهم القوة للانخراط في ميزان التوازنات في المنطقة.
- أدرك الأراتقة أن القدس لم تعد تمثل المكان المناسب لبناء مشروعهم السياسي وتطويره خصوصا في فترة تعقد التطورات واشتداد الصراعات في منطقة الشام، وأمام تهديدات الفاطميين المتكررة.
- ظل الأراتقة يساهمون بشكل كبير في الدفاع عن القدس، حتى بعد انسحابها على إثر استيلاء الفاطميين عليها، وقد لعبوا دور القيادة للقوى الإسلامية في مواجهة الحملات الصليبية لتحرير القدس.

الخاتمة

يمكن القول إن علاقة الأراتقة بالقدس قد بدأت منذ أن أصبح أرتق بن أكسيك واليا عليها، لكن هذه العلاقة بين الأراتقة والقدس لم تبق في حدود الولاية، بل شكلت بيت المقدس في العقل السياسي الأرتقي مرحلة جديدة نحو صياغة مشروع سياسي فاعل في المنطقة. لقد كان الأراتقة يدركون أهمية القدس في ميزان الصراع بين القوى الإقليمية والدولية، لذلك عملوا على حمايتها، وحرصوا على الدفاع عنها، وسعوا أن يجعلوا منها مركزا لقيادة مشروعهم السياسي. لكن ومع تعقد الأحداث، واشتداد الصراع بين عدة قوى داخل المنطقة وخارجها أدرك الأراتقة أن القدس ليست هي المكان المناسب الذي يمكن

من خلاله تحقيق حلم مشروعهم السياسي، فانتقلوا إلى منطقة ديار بكر، وهناك أسسوا لأنسفهم إمارة، لعبت بعد ذلك دورا مهما في الجهاد ضد الصليبيين، وساهموا بدور فعال في الحروب الصليبية التي مهدت للقوى الإسلامية من بعدهم في القضاء على الصليبيين، وتحرير بيت المقدس التي كانت تعتبر بوصلة الجهاد لدى الأراتقة. من جهة أخرى مثلت بيت المقدس في عهد الأراتقة محور صراع التوازنات في منطقة الشرق الأوسط، وشكلت منعطفا تاريخيا في الصراع الإسلامي المسيحي. وقد كان الأراتقة أحد أهم هذه القوى الفاعلة في خريطة التوازنات في القدس وفي منطقة الشرق الأوسط بشكل عام.

الهوامش

1 عبد الرحمن بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، مطبعة النهضة، القاهرة 1936، ج 5، ص 461.

2 أحمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، المطبعة الميمنية، القاهرة 1310ه، ج1، ص 61.

3 المرجع السابق، ص61.

4 علي بن أبي الكرم بن الأثير، **الكامل في التاريخ**، دار الكتب العلمية، بيروت 1987، ج8، ص 136.

5 عماد الدين خليل، **الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام**، مؤسسة الرسالة، بيروت ، الطبعة الاولى 1980، ص 66.

6 ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 10، ص 54.

7 خليل، **الإمارات الأرتقية**، ص66.

8 المرجع السابق، ص67.

9 ابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر**، ج 5، ص 463.

10 خليل، **الإمارات الأرتقية**، ص68.

11 المرجع السابق، ص69.

12 المرجع السابق، ص70.

13 أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1908، ص 127.

14 كمال الدين بن العديم، **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، دار الكتب العلمية، بيروت 1996، ص 124.

15 القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص133.

16 ابن العديم، **زبدة الحلب**، ص377.

17 خليل، **الإمارات الأرتقية**، ص77.

18 القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص135.

19 خليل، **الإمارات الأرتقية**، ص88.

20 المرجع السابق، ص89.

21 القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص135.

22 خليل، **الإمارات الأرتقية**، ص201.

23 المرجع السابق، ص207.

24 المرجع السابق، ص209.

25 القلانسي، **ذيل تاريخ دمشق**، ص135.

26 ابن العديم، **زبدة الحلب**، ص155.

27 خليل، **الإمارات الأرتقية**، ص227.

28 المرجع السابق، ص234.

29 المرجع السابق، ص235.